

الحوار التعليمي في القرآن

بقلم الدكتور زعراط محمد

يشكل الإنسان في القرآن الكريم ظاهرة تواصل بين الحاضر والماضي والمستقبل، فهو أصل الانبعاث عبر مراحل التطور والتشكيل، ومن خلال التفاعلات المتجددة، وذلك عبر الحوار المتواصل المنبثق عن طبيعة خلقية، اختزلت طبيعته المكننة بالقوة والضعف: "إن الإنسان خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا"⁽¹⁾. والسماحة والاختلال والزيف بفعل عوامل داخلية ذاتية وأخرى خارجية.

إن الحقيقة التي لا محيص عنها؛ أن القرآن الكريم في أسلوبه الحوارية، اعتمد قضايا غيبية في التوحيد والرسالة والبعث، فهو قد يكون على النمط الأحادي الذاتي Monologue كما جاء في قصة "إبراهيم" عليه السلام وهو يناجي ربه مخاطبا نفسه وباجئا عن آلهة: "وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الممترين، فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي، فلما أفل قتل لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهدهني لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة، قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون"⁽²⁾. وقد يكون الحوار بين شخصين

Dialogue كما هو الشأن في قصة "إبراهيم" عليه السلام مع قومه: "تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين"⁽³⁾، فقد اختزلت نفس "إبراهيم" ذلك الغضب وأباحث مكنونها الثائر على الوثنية. وقد يكون الحوار بين الشخصية وعنصر آخر. نحو الجن والطير أو الشيطان، وقد يكون بين الخالق والمخلوق.

إن للحوار في القرآن الكريم أهمية بالغة من حيث الكشف عن الجانب النفسي للشخصية، فتبعث في سجيته، لتكشف عن الصراع القابع في داخلها وتخرج بالقارئ في عالمها ليتبطن أحوالها وانفعالاتها، وهو يتابع بكل اشتياق أحداثها، كما هو الشأن في قصة "يوسف" عليه السلام: "إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين، قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين"⁽⁴⁾. إن الحوار القرآني في قصة "يوسف" ذو تحليلات متعددة من حيث ترتيب الأحداث وسردها، من ذلك صورة تبدى الشر، حينما رموه في البئر، ثم ما حدث له بعد ذلك مع امرأة العزيز، وهو منعطف إيماني، تجسده صورة المؤمن حينما تتناوبه لحظات الانحراف أمام نداء المعصية فيثبت بإيمانه، قال: رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين⁽⁵⁾، وتارة أخرى لما ينصره الله على إخوته ويجعله وزيرا: "قالوا تالله لقد أثرك الله عليكم وإن كنا لخطاطفين، قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين"⁽⁶⁾. وكذلك الأمر في حوار "موسى" عليه السلام مع فرعون، فقد اكتنف القصة جو من الصراع بين الإيمان والكفر، فتذكر القصة ما يلائم ذلك من محاولة قتل "موسى" والتفكير بقتل أبناء الذين آمنوا معه واستحياء نساءهم، كل ذلك يفسر اختيار الله "موسى" لدحض دعاة الكفر، ومشاركة أخيه له في هذا الموقف

العصيب وهو يتلقى من الله التكليف بالذهاب إلى فرعون في الحوار الآتي : "إذهب إلى فرعون إنه طغي، قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي، واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي اشدد به أزري، وأشركه في أمري، كي نسبحك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا"(7).

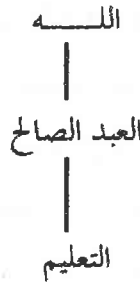
لم يرفض "موسى" التكليف، وإنما شك في قدرته على إبلاغ الدعوة نتيجة ضعف بشري تلبسه لحظة من اللحظات قبل الدعوة، وذلك حين قتل أحدهم⁽⁸⁾: "ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون"⁽⁹⁾. ولكن الحكمة الإلهية اقتضت الاستجابة الفورية لدعاء، "موسى" في قوله تعالى : "قد أوتيت سؤالك يا موسى"⁽¹⁰⁾.

ويتابع الحوار القرآني رصده للأحداث التي سيستقبلها "موسى" وأخوه موقف حوارى ومناجاة، استشعارا منهما بثقل المهمة التي كلفا بها. "اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكرى، اذها إلى فرعون إنه طغي، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى، قالا : ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو يطمغى، قال لا تخافا إني معكما أسمع وأرى، فاتياه فقولا إنا رسولا ربك، فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك، والسلام على من اتبع الهدى إنا قد أوحى إليك أن العذاب على من كذب وتولى"⁽¹¹⁾.

لذلك نرى أن القرآن يركز على الحوار وسيلة لإقناع الكفار في ظل الموضوعية العقلية التي يجعل المتبع للقصّة يحكم بتريه الله عن الظلم : "إن القول أو التصريح يحمل الحدث في اصالة النفسية والاعتقادية الحية ولما كان القرآن صارما في قصيدته التبليغية، وفي اقتصاده الإدلائي، فإن التصريح في أدبية الخطاب القرآني هو في الآن؛ قول وفعل، أو هو حدث موقف وحين يسرد القرآن الوقائع عن طريق التصريحات والأقوال فإنه يعرض الحقيقة من مصدرها، عارية مرتكزة على قناعتها

وحجته، وأن يعتمد القرآن إلى مسرحة الأحداث، فإنه يستثمر أيضا هذه الظاهرة، الخطائية الحوارية ليقدم للعقل والوجدان مقرراته من منطلق إيجائي مقنع الموضوعية، هي إحدى مزايا طرح الجوارى، إذ يمكن للعقل أن يستكنه إيجائية الموقف من خلال تصريحات الطرفين".

فالحوار التعليمي يقوم على إيصال الحقائق بالحجة والبرهان، معتمدا في استدلاله على إيجاء العلة قبل البرهان، ليثير في نفسية المتعلم لحظة اشتياق، كما جاء في الحوار التعليمي الذي دار بين "موسى" عليه السلام والعبد الصالح؛ فكان الفاعل هو الله والمتلقي هو العبد لصالح والحادثة العلمية "وعلمناه من لدنا علما"⁽¹²⁾.

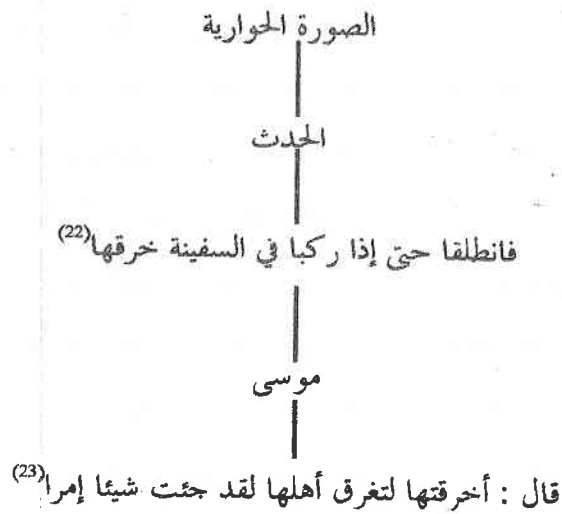


فالأمر وارد في قول "موسى" الطالب لعلمه: "هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا"⁽¹³⁾ لينتهي المشهد التعليمي الذي اتخذ الحوار أسلوبا يقول المعلم: "ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا"⁽¹⁴⁾. فمن التراكيب الحوارية قوله تعالى: "وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقا فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما، فأخذ سبيله في البحر سربا، فلما جاوزا قال لفتاه: إنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا، قال: أرايت إذ آوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إل الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا، قال: ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصا، فوجدا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من

عندنا وعلمناه من لدنا علما، قال : له موسى هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت
رشدًا، قال إنك لن تستطيع معي صبرا، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا، قال
: ستجدني إن شاء الله صابرا، ولا أعصي لك أمرا قال : فإن اتبعتني فلا تسألني عن
شيء حتى أحدث لك منه ذكرا⁽¹⁵⁾. ثم يتابع الحوار القرآني وصفه للأحداث التي
ميزت وضعين مختلفين "فموسى" عليه السلام نبي مرسل، ترصد لسه الأحداث
والوقائع بوحي من الله والعبد الصالح علمه الله علما لم يستطع "موسى" الاطلاع
عليه، قال جمهور العلماء : "إن موسى في قوله تعالى : "وإذ قال موسى لفتاه" هو
موسى بن عمران المذكور في القرآن المبعوث إلى فرعون وقومه، ورسول بني
إسرائيل وقيل : هو موسى بن منشأ بن يوسف بن يعقوب وكان نبيا قبل موسى
بن عمران، وقد أورد هذا القول ابن عباس كما ورد في رواية الحديث عن "سعيد
بن جبير" قال : قلت لابن عباس : إن نوحا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر
ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل، إنما هو موسى آخر، فقال : كذب عدو
الله⁽¹⁶⁾ والعبد الذي ذكر الله تعالى بقوله : "فوجد عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من
عندنا وعلمناه من لدنا علما"⁽¹⁷⁾، هو الخضر عليه السلام في قول جمهور العلماء⁽¹⁸⁾.
وهو ما تؤيده الأحاديث الصحيحة أيضا، فلقد ورد عند "ابن عباس" رضي الله
عنهما أنه تمارى هو و"الحمر ابن قيس الغزاري"، في صاحب موسى فقال : ابن
عباس : هو الخضر، فمرّ بهما بن كعب، فدعاه ابن عباس، فقال إني تماريت أنا
وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقياه؛ هل سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يذكر شأنه قال : نعم؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : بينما موسى في ملاء من بني إسرائيل جاءه رجل فقال : هل تعلم أحدا أعلم
منك : قال : لا فأوحى الله إلى موسى بلى عبدنا خضر، فسأل موسى السبيل إليه

فجعل الحوت أية، وقيل له إذا فقدت الحوت فأرجع فإنك ستلقاه، فكان يتبع الحوت في البحر، فقال موسى لفتهاه : أرأيت إذ آوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، فقال موسى ذلك ما كنا نبغ، فارتدا على آثارهما قصصا فوجدا خضرا فكان من شأنهما الذي قص الله في كتابه⁽¹⁹⁾. وفي رواية الحديث : "أن موسى قال للخضر : أتيت لتعلمني مما علمت رشدا. قال : يا موسى إني على علم من علم الله علمينه الله لا تعلمه وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه"⁽²⁰⁾.

وهذا الذي تظن له الخضر حينما قال : إنك لن تستطيع معي صبرا: أي أنك لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي، لأن الظواهر التي هي علمك لا تعطيه وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تخبر بوجه الحكمة فيه : "وكيف تصبر على ما لم تحط به خيرا"⁽²¹⁾. فالأنبياء لا يقرون منكرا، ولا يجوز لهم ذلك؛ وقد تمثلت عناصر المشهد الحوارية في الآتي :



العبد الصالح

قال : أ لم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا⁽²⁴⁾

موسى

قال : لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا⁽²⁵⁾

الحدث

فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله⁽²⁶⁾

موسى

قال : اقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا⁽²⁷⁾

العبد الصالح

قال : أ لم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا⁽²⁸⁾

قال : إن أسألك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا⁽²⁹⁾

"فانطلقا حتى إذا لقيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجد فيهما جدارا يريد أن ينقض، فأقامه، قال لو شئت لا اتخذت عليه أجرا قال : هذا فراق بيني وبينك" (30)

التأويل

الحدث

خرق السفينة ← فأما السفينة فكانت لمساكين يعملون في

البحر فأردت أن أغيها وكان وراءهم

ملك يأخذ كل سفينة غصبا (31)

قتل الغلام ← وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن

يرهقهما طغيانا وكفرا (32)

إقامة الجدار ← فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته

كتر لهما، وكان أبوهما صالحا، فأراد ربك

أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كثرهما رحمة

من ربك (33)

وكان جواب "موسى عليه السلام : ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك

أمرا" (34)

الهوامش

- 1- سورة المعارج : آية 20
- 2- سورة الأنعام : آية 75-78
- 3- سورة الأنبياء : آية 57
- 4- سورة يوسف : آية 4-5
- 5- سورة يوسف : آية 33
- 6- سورة يوسف : آية 91-92
- 7- سورة طه : آية 24-35
- 8- حسين فضل الله الحوار في القرآن ص 66
- 9- سورة الشعراء : آية 13
- 10- البيضاوي : أنوار التبريل وأسرار التأويل ص 480
- 11- سورة طه : آية 35
- 12- سورة طه : آية 41
- 13- سورة الكهف : آية 64
- 14- سورة الكهف : آية 65
- 15- سورة الكهف : آية 66
- 16- سورة الكهف : آية 60-82
- 17- ابن كثير : تفسير ج 4، ص 403
- 18- سورة الكهف : آية 64
- 19- القرطبي : التفسير ج 1، ص 16
- 20- صحيح البخاري ج 4، ص 187
- 21- المصدر نفسه ج 4، ص 189
- 22- سورة الكهف : آية 67
- 23- سورة الكهف : آية 70
- 24- سورة الكهف : آية 71
- 25- سورة الكهف : آية 72
- 26- سورة الكهف : آية 73
- 27- سورة الكهف : آية 73

- 28- سورة الكهف : آية 74
29- سورة الكهف : آية 75
30- سورة الكهف : آية 76
31- سورة الكهف : آية 78
32- سورة الكهف : آية 79
33- سورة الكهف : آية 81
34- سورة الكهف : آية 68